الفصل العاشر

التأويلات!

يهتم الأصوليون المسيحيون بإصلاح المجتمع، وتدافع رؤيتهم العالمية ليس عن مجرد صراع أو نضال ما، ولكن عن حرب عالمية تفعل الدول المتورطة فيها أقصى ما بوسعها لإبادة بعضها البعض من خلال استخدام أسلحة الدمار الشامل مثل الأسلحة الكيماوية والبيولوچية والنووية، أو ربما حتى الأسلحة الأكثر هلاكًا التى لا يستطيع العقل البشرى استيعابها فى هذه المرحلة. تمثل هذه الرؤية المميتة عالميًا، التى تعتبر نتيجة التفسير الأصولى للكتاب المقدس تهديدًا للسلام العالمى. إنها ترتكز على تأويل أحلام سفر الرؤيا فى الكتاب المقدس. تطور هذه التأويلات لعلماء أصوليين مسيحيين نموذج الألفية الذى تنشب فيه حرب عالمية فى وقت قريب فى منطقة الشرق الأوسط، يطلق عليها حرب هرماجدون، سوف تمتد إلى «ثلاثة أعوام ونصف»[٣٢٢]، ومعركتها الفاصلة هى «معركة هرماجدون»[٣٢٣]. ستجلب هذه الحرب على كوكب الأرض حالة تقترب من الإبادة الكاملة. يشير لينيش إلى أن الأفكار الخاصة بالألفية هى ظاهرة خاصة بالقرن العشرين فى الفكر الأصولى المسيحى، برزت بداية فى حملاتهم المعادية للشيوعية فى العقد الثانى والثالث من القرن العشرين. «ولكن بشكل خاص بعد عام ١٩٤٥م، مع مقدم الديپلوماسية النووية ونشوء دولة إسرائيل، بدأت الألفية تسيطر على وجهات النظر المسيحية المحافظة. لقد قام الأصوليون المسيحيون المعادون للشيوعية فى العقد الخامس من القرن العشرين بتطبيق النظرية بشكل تام على الاتحاد السوفييتى، والصين الشيوعية، والدول الشيوعية الأخرى، والتى كانت تعد ظهورًا حديثًا للمسيح الدجال. . .»[٣٢٤].

التزامًا باحترام الإسلام للمسيحيين واليهود بوصفهم «أهل الكتاب»، يعبر المؤلف عن احترامه لكتبهم المقدسة، وسوف يركز على تأويل سفر الرؤيا فقط، كما نوقش فى التراث المسيحى الأصولى. حيث إن تأويل الكتب المقدسة يحتوى على مدخلات

بشرية وتعتمد بشكل كبير، بين أشياء أخرى، على المعرفة الإنسانية والمنطق والتحيز والحس الداخلى والتخمين، فإنه يمكن تحليلها بشكل موضوعى لتحديد مضامينها الخاصة بالسلام العالمى.

فى كل عصر، كان يتم تأويل الكتاب المقدس من خلال الخبراء المختصين بطريقة تعكس أفضل قدراتهم ومستواهم المعرفى، ولكن مع مرور الوقت، كان كل تأويل يتبعه إعادة تأويل بعد جيل أو اثنين. يرجع ذلك لحقيقة أنه مع الوقت تتراكم المعرفة والخبرة والنضوج والتفكير الإنسانى، وكل جيل جديد (فى ضوء المعرفة الجديدة أو المطورة) يجد أن الأطروحة بحاجة إلى رفضها أو تطويرها على نحو أبعد.

حيث إن تأويلات سفر الرؤيا بها معان خطيرة فيما يتعلق بمستقبل الجنس البشرى برمته وكوكب الأرض، فإنه من الملائم أن نختبر طبيعتها الكلية بشكل أوثق. ومن أجل أن نفعل ذلك نسأل سؤالاً بسيطًا للغاية: هل أثبتت تأويلات الكتاب المقدس صحتها دوما؟.

حيث إن التأويلات المتعلقة بالألفية وهرماجدون هى ما سنقوم بالتركيز عليه هنا، لإنها تؤثر على العلاقات الإنسانية من خلال التأثير على العلاقات بين الدول والحضارات، فإنه من الملائم أن نبحث فى بعض التأويلات الأخرى للكتاب المقدس والتى تتضمن العلاقات الإنسانية. سوف يساعدنا هذا البحث فى تقييم الادعاءات حول صحة التأويلات. لنأخذ مثلاً تأويل الكتاب المقدس فيما يتعلق بالعبودية. إنها من أبسط وأكثر الظواهر شيوعًا والتى لا تتطلب أية معرفة عن المستقبل، ويمكن أن تفهم دون أى التباس فى ضوء شخصية وتعاليم المسيح وروح الكتاب المقدس. إن هذه ظاهرة تتعامل مع الناس الذين يختلفون عن بعضهم البعض فى الأصل العرقى، مثل الملونين والسود والبيض. للبحث فى تأويلات الكتاب المقدس التى قام بها الأصوليون المسيحيون فى هذا الموضوع فى الماضى القريب، سنتناول حالة التمييز العنصرى.

تعد قضية العبودية من وجهة نظر تأسيس مملكة الله على الأرض والخلاص، الذى كان الاهتمام الأساسى للمسيحية الأصولية، وثيقة الصلة بالموضوع بوصفها حالة اختبار فى هذه المناقشة التى تتصدى لقدرة الأصوليين المسيحيين على تأويل الكتاب المقدس بشكل سليم. تعتبر اليوم حقوق الإنسان من الأمور الضرورية لأى فكرة أو

نظرية عامة عن الكرامة الإنسانية، وهذا صحيح؛ لأن الإنسان لو لم يكن حرًا، فلا كرامة لديه إذن. وبشكل مشابه، من وجهة نظر الخلاص، الذى يعد الاهتمام الأولى للدين، يجب أن يكون البشر أحرارًا وقادرين على اختيار الصواب من الخطأ. فى هذه الحالة فقط سيكونون قادرين على العمل باتجاه خلاصهم.

والآن دعونا ننظر إلى تأويل الكتاب المقدس فيما يتعلق بالعبودية:

١ ـ تأويل لوثر للكتاب المقدس فيما يتعلق بالعبودية فى القرن السادس عشر:

طور مارتن لوثر «نظريته اللاهوتية الخاصة بالصليب»، مدافعًا عن «الغفران فقط من خلال رحمة إلهية يتلقاها المرء من خلال إيمانه»[٣٢٥]، وبالتالى تحرير المسيحيين من سلطة الكنيسة الرومانية الكاثوليكية والبابا. لقد عبر بشكل صريح عن مفهوم الحرية هذا فى كتابه «حرية المسيحى». لقد استخدمه الأمراء الألمان، الذين ثقلت الأعباء على كاهلهم بسبب الضرائب وغفران الكنيسة الكاثوليكية، لتحرير أنفسهم من روما. ولكن حينما حاول الفلاحون الألمان الفقراء، الذين كانوا يمثلون أغلبية السكان، وكانوا أكثر الفئات تعرضًا للاضطهاد فى المجتمع، نشر «الموضوعات الاثنى عشر للفلاحين»، مطالبين بالحرية من الاضطهاد والظلم على أساس المفهوم اللوثرى للحرية المسيحية، وقف لوثر مدافعًا عن مصلحة الأغنياء وأنكر على الفلاحين حريتهم. لقد كان مناصرًا لوجهة النظر القائلة «بدلاً من الوعد بتحرير الفلاحين من عبوديتهم، قد أيد الكتاب المقدس العبودية. كان لكل البطاركة والأنبياء فى العهد القديم عبيد، ولقد دعا بولس الرسول فى العهد الجديد العبيد لقبول وضعهم. ولتقديم نصيحة مشابهة للفلاحين الألمان، قام لوثر علاوة على ذلك بتحذيرهم بعدم ارتكاب جريمة «السرقة» التى يبتعد كل إنسان باقترافها بجسده عن ربه، برغم أن جسده هو ملك للرب»[٣٢٦].

يمكن للمرء أن يقول إن لوثر قد عاش منذ ما يقرب من خمسمائة عام، وأن الروح الحقيقية للكتاب المقدس لم يتم فهمها واستيعابها بشكل أفضل إلا بعد الثورتين الأمريكية والفرنسية. هذا الاحتمال ليس زائفًا، حيث إن العناصر الليبرالية فى الغرب كانت تظهر فهمًا أفضل لروح الكتاب المقدس والتزامًا أوسع بالكرامة الإنسانية من

خلال الدفاع عن المساواة والعدالة الاجتماعية. على الرغم من ذلك، ظلت المؤسسة الدينية المحافظة متمسكة بالتمييز العنصرى على أساس تأويلاتها للكتاب المقدس.

٢ ـ دعم الكتاب المقدس للتمييز العنصرى:

عملت الكنيسة الهولاندية البروتستانتية والحزب الوطنى (الأبيض العنصرى) خلال عقدى الثلاثينيات والأربعينيات من القرن العشرين بشكل وثيق للغاية لتصميم وتطبيق نظام التمييز العنصرى فى جنوب أفريقيا. لقد وجدت الكنيسة الهولاندية البروتستانتية التمييز العنصرى فى تفسيرها للكتاب المقدس. هذه التأويلات جعلت من الكتاب المقدس كتابًا مقدسًا «عنصريًا». من كلوكس كلان إلى النازيين الجدد، كان الكتاب المقدس «العنصرى» راضيا عن كل العنصريين فى العالم على وجه الأرض، حيث إنهم فى الواقع كانوا ينفذون خطة الله على الأرض، حيث إن الله بالفعل كان «صانع الانفصالات»[٣٢٨]. إن الفكرة الخاصة بنظرية التمييز العنصرى اللاهوتية تقول ما يلى: «فى البداية فصل الله النور عن الظلمة، الماء فى الأعالى عن الماء فى الأسفل، الأرض عن البحر، وهكذا، للإشارة إلى أن هذا الفصل ـ الفصل العنصرى ـ كان هو الخطة الإلهية للخلق. حينما أرشد الله البشر لأن يكونوا مثمرين (أى يتكاثروا)، فإن الله كان يريد أن يكونوا مثمرين وأن ينقسموا إلى مجموعات، قبائل أو شعوب منفصلة[٣٢٩].

شيدت الكنيسة الهولاندية البروتستانتية، بعد أن بينت هذه الفكرة اللاهوتية من الكتاب المقدس، البنية الأيديولوچية للفصل العنصرى برمتها على هذا الأساس. فى عام ١٩٤٨م نشر تقرير رسمى صادر عن الكنيسة الهولاندية البروتستانتية هذه البنية بوصفها الخطة الإلهية للفصل العنصرى، حيث عملت على المستويات الثلاثة التالية:

(١) « وعد الله بالتمييز العنصرى الروحانى فى الفصل النهائى بين من يحصلون على الخلاص الأبدى، وأولئك المحرومين بين الأغنام والماعز، القمح والنخالة، وبين الضوء والظلام فى يوم الحساب» (متى، ١٥ : ٢٥)[٣٣٠].

(٢) «التمييز العنصرى الاجتماعى، يقوم على الأمر الإلهى ـ فى سفر التثنية ـ لبنى إسرائيل بألا يختلطوا بالشعوب التى حولهم، لا يصاهروهم ولا يعقدوا معهم معاهدات (الإصحاح السابع)»[٣٣١].

(٣) «التمييز العنصرى السياسى، يبرره أمر إلهى، عندما خلق الله أمما متفرقة يجب أن تحتفظ بانفصالها من أجل أن تتبع الإرادة الإلهية (سفر التكوين ـ الإصحاح الثانى، أعمال الرسل ـ الإصحاح الثانى)»[٣٣٢].

يمكن أن يجادل المرء بأنه ربما شعرت الأقلية البيضاء فى جنوب أفريقيا بأنها مهددة من قبل الأغلبية الساحقة للسود، ولهذا السبب لجأوا إلى سياسة التمييز العنصرى كآلية دفاعية، وأن الأصوليين المسيحيين فى الولايات المتحدة لم يفعلوا ذلك. ولكن لم يكن ذلك هو الحال، للأسباب التالية:

* حث اليمين المسيحى الحكومة الأمريكية على تبنى سياسة خارجية مسيحية من شأنها أن «. . . . تساند الدول الحديثة فى إسرائيل وتايوان وجنوب أفريقيا»[٣٣٣].

* «كزائر متردد خلال عقد الثمانينيات، أشاد جيرى فالويل بجنوب أفريقيا بوصفها «دولة مسيحية» حيث تدعم حقوق الإنسان، مثل حقوق الذين لم يولدوا بعد، حيث إن الإجهاض كان غير قانونى. مدافعًا عن نظام التمييز العنصرى، انتقد فالويل بحدة الأسقفية الأنجليكية المعادية للتمييز العنصرى، وديسموند توتو الحائز على جائزة نوبل للسلام، ووصفه بأنه محتال»[٣٣٤].

* أشادت شخصية أخرى بارزة من اليمين المسيحى الجديد، وهى چيمى سواجارت «أشاد بجنوب أفريقيا بوصفها «بلدًا إلهية»، حيث اتخذ موقعًا فى الخطوط الدفاعية فى المعركة بين المسيح الدجال الشيوعى و«الحضارة المسيحية» والتى مثلها نظام الأقلية البيضاء»[٣٣٥].

ليس هناك من شك فى أن البيض كانوا أكثر قوة وأكثر نفوذًا وأكثر استبدادا على السود فى جنوب أفريقيا، ودعمت تأويلات الكتاب المقدس وضعهم كأسياد فوق أهل البلاد من السود، إن ذلك لا يعنى أن تلك التفسيرات المتحيزة والعنصرية كانت صحيحة. حينما تغير الزمن، أثبتت الحقيقة النهائية أن تلك التفسيرات كانت خطأ إنسانيًا، مبنيًا ليس على روح الكتاب المقدس ولكن على المصالح المكتسبة والأجندة الكونية لتأويل الكتاب المقدس.

لقد تناولنا التمييز العنصرى كحالة واحدة، ولكن إذا كان للمرء أن يقوم بدراسة تاريخ الأديان برمته، سيجد أن البشر، فى بذلهم الجهد للقراءة وتفسير الرموز

والشفرات أو العلامات فى الكتب المقدسة، فإنهم غالبًا ما يصيبهم التردد والاضطراب. يكمن السبب الرئيسى وراء ذلك فى أن الناس بشكل عام يئولون ويتصورون، ويخمنون على أساس ما يعرفونه فى وقت معين، ولكنهم لا يملكون المعرفة كلها. ولهذا فإن معرفتهم تصبح مقيدة بالعصر الذى يعيشونه والمكان الذى يعيشون فيه، وبسبب معرفتهم وتجاربهم الشخصية، وحينما يجلسون لمعالجة أية بيانات، فإنهم يعانون أيضًا من تحيزهم الشخصى الذى يعد جزءًا من جبلتهم الطبيعية بفضل حقيقة أنهم بشر. ولهذا، فحينما تمر مختلف الرموز، والعلامات والشفرات خلال كل تلك القيود واللاموضوعية والتحيز، تأتى النتيجة النهائية فى شكل مشوه، وإذا كانت تحمل معانى متضمنة للعلاقات بين الأمم والحرب والسلام، فإذن على المرء أن يكون حريصا للغاية فى قبولها بسبب عواقبها الكامنة الوخيمة.

حتى بين الدوائر العلمية الغربية، توجه انتقادات لتأويل تنبؤات الكتاب المقدس بسبب أنها تحمل أغراضًا ما.

تقوم التفسيرات الأصولية، كما ناقش البعض، بشكل عام على نموذجين:

الأول: هو نموذج يرتكز على مخطط نظرية المؤامرة. بملاحظة سجل الأصوليين فى تأويل التنبؤات وفقًا لهذا المخطط، يقول بروس:

«لقد قامت الجماعات الأصولية المختلفة فى أوقات مختلفة بتحديد عدو مختلف. فى القرن التاسع عشر، كان من المحتمل أن يكون هذا العدو هو «إليوميناتى»، وهى جمعية دولية يفترض أنها كانت سرية، أو «الماسونية». بينما فى القرن العشرين، قد يكون هذا العدو هو **اليهود** عبر العالم، أو **الشيوعية**. إن إبراز هاتين الكلمتين أمر متعمد. بالنسبة للأصوليين الأمريكيين، ليست الشيوعية فلسفة سياسية عامة تدعو إليها - بطرق مختلفة للغاية - حركات سياسية مختلفة: إنها مؤامرة فريدة. يختلف الأصوليون عمن هو «حقيقة» وراء كل ذلك. البعض يظنون أن الشيوعيين هم حقيقة من اليهود، بينما يعتقد الآخرون أن اليهود هم فى الواقع شيوعيون. فى بداية عقد الثمانينيات من القرن العشرين، وبعد أن أصبحت الشيوعية قوة منهكة بشكل واضح، وبعد صعود اليهود فجأة إلى موقع الحلفاء، ألّف الأصوليون الأمريكيون اسمًا جماعيًا

جديداً لأعدائهم المتنوعين، حيث أطلقوا عليهم اسم «الإنسانيون العلمانيون». يفترض آيات الله الإيرانيون أن الإمبريالية الأمريكية واليهودية والصهيونية، والمسيحية، كلها تمثل الشر ذاته»[٣٣٦](*).

نرى هنا أن بروس قام بتحديد ميزة مهمة للأصوليين المتدينين، وبشكل محدد، الفكرة الاستحواذية التى تسيطر عليهم والخاصة بـ«تحديد عدو فى كل عصر». وبشكل مثير للاهتمام، على الرغم من بذلهم أقصى جهودهم، لم يستطع الأصوليون المتدينون احتكار هذا المشروع، حيث واجهوا منافسة عنيفة من العلماء العلمانيين من مختلف المجالات المعرفية مثل التاريخ والعلاقات الدولية والسياسة. إذ حاول أولئك العلماء العلمانيون الذين يحاولون أن يتفوقوا على الأصوليين المتدينين فى سوق الأفكار الأصولية، وذلك من خلال إنتاج نظريات وأدبيات مُحَمّلة بمتفجرات مماثلة. إنهم يفعلون ذلك من خلال التلاعب بكل ملاحظة ممكنة بطريقة ما تقود إلى تحديد جماعة أو مجتمع معين بوصفه العدو(عدو الغرب).

إحدى تلك المقولات العلمانية المعاصرة هى لـ «هنتنجتون»، وهى مسايرة للخط العام لتفسيرات الأصوليين للتاريخ. لقد اقترح نسخة علمانية من أطروحة نهاية الزمان تحت عنوان «صدام الحضارات»[٣٣٧]. وهكذا، إذا أخذنا فى الاعتبار فكرة معركة هرماجدون، فإن هنتنجتون لم يأت بأى جديد، ولكنه قالها بطريقة أخرى، ويجب أن ينسب له الفضل كما ينبغى، للجهد الفكرى الذى بذله فى إلباس الدمية القديمة ملابس عصرية.

إن السمة الأخرى للفكر الأصولى، كما قام بروس بتعريفها، «.. هى شغف بفك شفرات العلامات واكتشاف الارتباطات المخبوءة». جادل إيان بيزلى على سبيل المثال أن اليسوعيين (وبشكل ضمنى كل الرومان الكاثوليك) ليسوا مسيحيين مُضَلَلين، إنهم فى الحقيقة وثنيون، وأنه يعلم ذلك لأن شعار اليسوعى «IHS» والذى يقول اليسوعيون إنه اختصار «المسيح منقذ البشر» (علم التهجئة فى ذلك الوقت كان يكتب J مثل I) يمثل فى الحقيقة آلهة مصر القديمة. هناك تقليد قديم فى الأصولية البروتستانتية

(*) آيات الله يعادون الصهيونية والإمبريالية الأمريكية، وليس اليهودية ولا المسيحية ـ المترجمة.

خاص بحل شفرات الفقرات المجازية فى الكتاب المقدس. يقوم العلماء لتحديد موعد نهاية العالم، بعمليات حسابية معقدة بأعداد حوافر البهائم فى سفر الرؤيا والكتب المشابهة»[٣٣٨].

تمثل تعليقات بروس السابقة ـ بشكل أساسى ـ وجهة النظر الأوروبية التى تتسم بانتقاد ممارسة تأويل تنبؤات الكتاب المقدس. إن موقفنا فى هذا الصدد هو أن المستقبل، من حيث المبدأ، غير معروف، فالبشر ليس لديهم المقدرة على التنبؤ به بشكل مؤكد (سواء بالتخمين أو من خلال تأويل التنبؤات). فهو يخضع فقط لمشيئة الله القدير، وهذا سبيل أفضل للإنسانية كلها. يشار إلى حقيقة أن توقيت نهاية العالم يعرفه الله وحده فى الكتاب المقدس كما يلى:

«أما ذلك اليوم وتلك الساعة، فلا يعرفهما أحد، ولا ملائكة السماوات، إلا الآب وحده». إنجيل متى: الإصحاح ٢٤: ٣٦.

«وأما ذلك اليوم وتلك الساعة فلا يعرفهما أحد، لا الملائكة الذين فى السماء ولا الابن، إلا الآب. فانتبهوا واسهروا لأنكم لا تعرفون متى يحين الوقت!».

إنجيل مرقص: الإصحاح ١٣: ٣٢ ـ ٣٣

* * *